العيون الجميلة لغة دلالية تواصليّة.. شعر الأغربة نموذجاً

هبة الحمصي* د. خالد زغريت**

(الإيداع: 10 حزيران 2020 ، القبول: 26 تموز 2020)

مُلَخّص:

يقوم هذا البحث على فكرة أساسيّة؛ وهي أنّ التّواصل الإنسانيّ لا يتوقّف عند حدود الكلمات المنطوقة، بل يتعدّى ذلك ليشمل حركات الجسم و أعضائه مثل: الوجه و العين و الأطراف و الهيئة العامّة، فحركات الإنسان المتمثّلة في التّقطيب و التّجهّم و التّبسّم، و حركات الجوارح كلّها تمثّل في شعر الأغربة صوراً تعبيريّة فنّيّة ذات أبعاد تواصليّة و انفعاليّة و شاعريّة، تكمن أهمّيّتها في قدرتها على ترجمة ما يدور في خلجات النّفس، و إظهاره على أعضاء الجسم الخارجيّة دونما سيطرة من الإنسان عليها في كثير من الأحيان، فتشكّل بذلك عاملاً مهمّاً في عمليّة التّواصل البشريّ.

يقوم مضمون هذا البحث على الكشف عن كيفيّة استعمال الصّور التّعبيريّة الانفعاليّة للعين بوصفها مكوّناً شعريّاً في شعر الأغربة عند الجاهليّين و المخضرمين، كما يرمي إلى الكشف عن مفهوم الجميل الذي يؤديه التّصوير الإيمائيّ للعين.

و تتجلّى أهميّة البحث من جهة أخرى في التّوظيف الشّعريّ للخطاب الإيمائيّ و انفعالات العين و تأثيرها في تشكيل خطاب شعريّ يخاطب أحاسيس المتلقّي و يثير انفعالاته، و اكتشاف الآفاق الجماليّة بتجلّياتها الشّعريّة، و بيان العلاقة بين الانفعال و تجلّيه في حركات العين، ودراسة لغة العين بحسب انتمائها إلى مفهوم الجميل.

و الجدّة المتوخّاة من هذا البحث تكمن في التّوظيف الشّعريّ للتّعبير بالعين، و بناء صورة شعريّة تحمل الخصائص النّفسيّة و الفنّيّة للشعراء الأغربة، و تسهم في الكشف عن علاقة البيئة الزّمانيّة و المكانيّة بخصائصهم الشّعريّة، و تزوّدنا بملامح تاريخيّة عن صور الخطاب الشّعريّ للغة العين؛ فيكشف هذا البحث ظاهرة لغة العين عند الشعراء الأغربة، إذ انطلقت فكرة كتابة هذا البحث من دراسة جماليّات هذه اللغة في أشعارهم.

الكلمات المفتاحيّة : العيون، الجميل، لغة العين، الأغربة.

*طالبة دراسات عليا ، قسم اللغة العربيّة – الدّراسات الأدبيّة – كليّة الآداب ، جامعة حماة .

** مدرّس الأدب الجاهليّ ، عضو الهيئة التدريسيّة ، كليّة الآداب ، جامعة حماة .

Beautiful Eyes as a Communicated Semantic Language ... " Al-Aghriba Poetry as a Topic

*Hiba Alhomsi **Dr.Khaled Zaghrit

(Received: 10 June 2020, Accepted: 26 July 2020)

Abstract:

This search depends on the basic idea that the human communication doesn't stop at borders of spoken words, it goes beyond that to include the movements of the body and its organs as face, eye, limbs and the body posture. So, gestures of glumness, frown, smile and movements of body, are represented in Al-Aghriba through poetry artistic expressive imagery that have communicative and emotional perspectives.

Their importance might also lie in their ability to translate the whispers of the soul and showing them on external parts of the human body unconsciously. Thus constituting an important factor in the process of "Humman Commuication".

This research attempts to reveal how the emotional expressive imagery of the eye are used as a poetic component in the poetry of Al-Aghriba among the pre-Islamic and veterans, as it aims to reveal the concept of the beauty performed by the gestural imaging of the eye. On the other hand, the importance of research is evident in the poetic employment of gestural discourse and the emotions of the eye and its effect in forming a poetic discourse that addresses the feelings of the recipient and arouses his emotions, discovering the aesthetic perspectives with their poetic manifestations, explaining the relationship between emotion and its manifestation in eye movements, and studying the language of the eye according to the concept of beauty. Novelty in this research lies in the poetic employment of eye expression and building a poetic imagery that has psychological and technical properties of "Al-Aghriba poetics".It also contributes in discovering the relations of temporal and spatial environment to the characteristics of poetic discourse and supplies us with historical features of poetic discourse imagery of eye's language, It clearly points to creative elements of " Al-Aghriba Poets phenomena".

Key words: Eye, Beautiful, Eye language, Al-Aghriba.

* Postgraduate- Level Student- Arabic Language and Literature Department- Literary Studies- Faculty of Arts- Hama University.

** Pre- Islamic Ignorance Literature Teacher Faculty Member- Arabic Language and Literature Department- Hama University.

المقدّمة:

حظيت العين في الأدب بقدر كبير من التعبير عن عواطف الإنسان وحواسه وأحواله النفسية، فشكلت لغة تواصل إيمائية وتعبيرية في الوقت عينه.

واحتلّت دوراً في التعبير عن الانفعالات البشرية؛ فهي تعكس رسائل مشاعر الإنسان ومواقفه، وتشكل جسراً للألفة والأنس أو الغضب والنفور، وتشكل صلة الوصل بينه وبين عالمه الخارجي.

وقد لقيت لغة الجسد عامّة و العين خاصّة عناية كبيرة عند الباحثين، وكثر الحديث عن دورها في التواصل، و الإبانة عن مكنونات النّفس، و إثبات الحقائق التي لا تصبح مؤكدة إلا إذا أقرّتها العين، ذلك أنَّ للعيون أهمية خاصة " فهي من الجسد معين الجمال، و ينابيع الإلهام، و خلاصة إنسانية الإنسان، ومستودع أسراره، تتكلم بلا صوت، وتغزو القلوب، وتلهب الحواس، وتفجّر المواهب، وهي أبواب المحبة، ونوافذ المودّة، وقنوات الشوق"[1].

وكانت العين في مختلف موضوعات الشعر الجاهلي مثار اهتمام الشعراء؛ إما لتجسيد جمالها أو للكشف عن إيماءاتها ، فكانت في الغزل ملهمة الشعراء ومحطّ جاذبيتهم للتعبير عن مظاهر جمالها وتجسيد رسائلها.

فتجلّت في أوضاع مُتباينة في الشعر، فقامت مقام الكلام، واقتنصت منها دلالات، و تعيّنت بها مقاصد، فقامت في الشعر بلغة تواصل غير لفظي فأغنت التواصل بتعبيراتها، فكانت ناقلاً للمعاني والإيحاءات التي رغب الشعراء في إيصالها، "فالعين باب القلب، فما كان في القلب ظهر في العين"[2].

وتبدّت لغة العين عند الشعراء الأغربة بوصفها لغة دلالية تواصلية؛ أسهمت في إبراز جمالها في أشعارهم؛ ونقلت مشاعرهم التي ترتبط بخصائص نفسيّاتهم وبيئاتهم، وكانوا في أحيانٍ كثيرة يلاقون مقوّمات الجمال في مجتمعهم ويجسّدونها، إذ إنّ جمال المرأة لم يختلف في مظاهره الحسيّة، إنّما أصرّوا على الكشف عن رغبتهم في إعلاء الجوانب الأخلاقيّة والمشاعر الإنسانيّة التي يحتاجها الأغربة، فكانت سُكنى لهم، لذلك حمّلوا لغة العين انفعالاتٍ إنسانيّة دافئة.

مشكلة البحث:

غياب عناية الباحثين بدراسة التجليّات الشّعريّة للغة العين في شعر الأغربة، فلم أحظ في تتبّعي للدّراسات الّتي عنيت بشعر الأغربة على دراسات تتناول هذه الظاهرة .

أهداف البحث:

إنّ هذا البحث يرمي في نتيجته إلى أهدافٍ عدّة، منها:

- الانفتاح المبكّر للشّعراء العرب الأوائل على مختلف البنى التّعبيريّة المادّيّة والرّوحيّة، والتّوظيف الشّعريّ المبكّر لجماليّة لغة العين وآفاقها التّعبيريّة والانفعاليّة في بناء الخطاب الشّعريّ القديم.
- الكشف عن غنى التّجربة الشّعريّة والإنسانيّة للشّعراء الأغربة وتوظيفهم الخطاب الإيمائيّ شعريّاً.
- الكشف عن الخطاب التّواصليّ الشّعريّ للغة الجسد في شعر الأغربة، ودراسة الأبعاد الجماليّة والشّعريّة لصور لغة العين في شعر الأغربة.

---

[1]. حادي الأرواح، ج1، ص51. عن: العيون بوصفها قيمة تعبيرية.. شعر المتنبي أنموذجاً، عبد الفتاح محمّد، مجلّة التراث العربي، العدد129، 1434هـ – 2013م، ص150.

[2]. العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربّه، شرح: أحمد أمين وأحمد الزين و إبراهيم الأبياري، دار الأندلس، لبنان، بيروت، 1996م، ج2، ص115.

- تقصّي الجذور التّاريخيّة للصّور الشّعريّة القائمة على لغة العين، وخصوصيّة التّوظيف الشّعريّ لها في أقدم نماذج الشّعر العربيّ، وتأكيد العمق التّاريخيّ لتوظيف الشّعر العربيّ للغة العين.
- دراسة مفهوم الجميل للغة العين عند الشعراء الأغربة.

الدّراسات السابقة:

عني الباحثون في المراحل الأخيرة من القرن العشرين بدراسة لغة الجسد من جوانب متعدّدة، وأبرزها الجانب اللّسانيّ والتّواصليّ، ولذلك ذخرت المكتبة العربيّة بدراسات نظريّة عن هذه الظاهرة، نذكر منها :

- (الفراسة عند العرب وكتاب "الفراسة" لفخر الدين الرازي) للدكتور يوسف مراد، ترجمة وتقديم الدكتور مراد وهبة، ومراجعة الدكتور إبراهيم بيومي مدكور، الصادر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (لغة الجسد) للكاتب بيتر كليتون، تكلّم فيه الكاتب على مدلول حركات الجسد وكيفيّة التّعامل معها، كما تحدّث عن ماهيّة لغة الجسد وعن أساسيّاتها وعن طرائق إلقاء المحاضرات والخطابات الرّسميّة وعن الثّقة في النّفس وعن الشّك وعدم التّصديق، كما تطرّق إلى لغة الجسد خارج محيط العمل، و عن قواعد الإتيكيت الدّوليّة وعن لغة الجسد الإيجابيّة و السّلبيّة.
- (سيمياء لغة الجسد دراسة دلالية تواصلية) للدكتور محمد وليد السراقبي، تناول فيه الباحث إيماءات لغة جسد الرأس، و الوجه ، والخدّ ، والعين ، والفم ، واليد، و دلالاتها وفق السياق الذي وردت فيه في القرآن الكريم، وقد صدر عن الهيئة العامة السورية للكتاب.

أمّا في مجال الدّراسة الأدبيّة الفنّيّة فقد كانت قليلة نسبيّاً في الدّراسات الّتي تناولت الشّعر الجاهليّ عموماً – و شعر الأغربة خصوصاً – باستثناء :

- (تجليّات النفس وأثرها في صورة الجسد) للباحثة غيثاء قادرة ، الّتي تحدّثت فيها الكاتبة عن تجلّيات النّفس و أثرها في صورة الجسد في أشعار الصّعاليك ، فهذه الدّراسة لم تتطرّق لجماليّة لغة العين في أشعار الأغربة؛ وهم فئة من الصعاليك الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم الحبشيّات؛ فأطلق عليهم الأغربة.
- (العيون بوصفها قيمة تعبيريّة) للدكتور عبد الفتّاح محمّد، تناول فيه نماذج ذكرت العين، متخذاً شعر المتنبي نموذجاً له.

مصطلحات البحث وتحديداته:

مفهوم لغة الجسد:

يحمل مفهوم لغة الجسد دلالة على المزج بين اللغة التي "تعني أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]؛ والجسد الذي يراد به أعضاء جسد الإنسان الظاهر التي يستعملها إشارة أو إيماء للتعبير عن مشاعره وانفعالاته، ويدل التركيب في هذا السياق على "نوع من التواصل غير الشفهي".[2]

ولغة الجسد مصطلح حديث الوجود في مجال علوم اللغة وآدابها، ولكنه أسلوب تواصلي موغل في القدم، فهو أسبق من الكلمات الملفوظة، حيث تنتقل مشاعرنا وعواطفنا عبر هذه اللغة بالإشارة والإيماء؛ وهو تعبير إنساني مرتبط بحركات أعضاء الجسم، وظهور تعبيرات نفسية من خلال تلك الحركات والإيماءات.

---

1. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، مصر، القاهرة،1990م، ج1، ص33.
2. لغة الجسد، بيتر كلينتون ، إعداد: أ. مهند الخيري ، ص4.

و قد أشار الجاحظ إلى ذلك في كتابه "البيان و التبيين" بقوله: "الإشارة واللفظ شريكان، ونِعْم العونُ هي له، و نِعْم الترجمانُ هي عنه. وما أكثر ما تنوبُ عن اللفظ، وما تغني عن الخط... و في الإشـــارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح مرفق كبير ومعونة حاضـــرة، في أمور يســـترها بعض الناس من بعض، و يخفونها من الجليس و غير الجليس. و لولا الإشارة لم يتفاهم الناس معنى خاصّ الخاصّ، ولجهلوا هذا الباب البتَّة"[1].

وأساس قراءة لغة الجسد هو القدرة على فهم حال الشخص العاطفية وانفعالاته وهو يتحدث، فتكون مرافقة للتواصل اللفظي وموضـحة لها في مسـتوى المشـاعر والانفعالات، وهي توحي بالظروف التي يقول ذلك فيها، فالحقيقة مكتوبة في وجوهنا، ومعظم إشارات التواصل الأساسية تعدّ واحدة في جميع أنحاء العالم.

نخلص مما تقدّم إلى أنَّ التواصـل الإنسـاني لا يتوقف عند حدود الكلمات المنطوقة، بل يتعدى ذلك ليشـمل حركات الجسم و أعضائه، مثل: الوجه والعين والأطراف والهيئة العامة. حيث تقوم مقام الكلام في أحيان كثيرة، إذ يتعطل الصوت، و يحل محله الصمت، فيكون نائباً أميناً.

مفهوم الأغربة:

سـاد مفهوم الأغربة[2] منذ العصـر الجاهلي، إذ أُطلق على مجموعة من الأفراد الذين " عاشـوا على هامش المجتمع، طبقة فقيرة مهانة، ومدموغة في الوقت نفسـه بالسـواد"[3]. فسـعوا إلى تحقيق ذواتهم، مناهضـين أسـباب اضـطهادهم الناشـئة من المفهوم الطبقي والعرقي الذي كان سائداً في تلك المرحلة الاجتماعية.

فاشـتقت تسـمية الأغربة من الغراب، وكان العرب يتشـاءمون به، فأطلقوا عليهم هذه التسـمية " تشـبيهاً لهم بهذا الطائر البغيض المشـؤوم في لونه الأسـود "[4]، وقد تولد المصـطلح من إطلاق الجاهليين صـفة الأغربة على " أولاد الإماء السـود الذين سرى إليهم السواد من أمهاتهم"[5]. وهم الذين ولدوا من إماء السـبايا الحبشـيات، فكان " يحدث أحياناً أن يتزوج العربي من أَمته، و لكن المجتمع الجاهلي كان يرى في هذا الزواج زواجاً غير متكافئ، ومن هنا أطلق على ثمرته اسـماً خاصـاً، فسـمي ابن العربي من الأَمة (هجيناً) "[6]، ولم ينظر المجتمع إلى هذه الصـلة نظرة احترام، فالطبقة الدنيا كانت تتألف عادة من الإماء أو ممن أُعتق منهن، ولم يكن العربي يعرف لهؤلاء الإماء مساواة في الحقوق ولا مساواة في المعاملة[7].

---

1 . البيان و التبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر، القاهرة، 1975م، ج1، ص78.

2. والأغربة في اللغة: أَغْربة: جمع غراب، و غُراب: (اســم)، و الجمع: غِرْبان، و أَغْرُبٌ، و أَغْرِبة. و الغُرابُ: جنْس طيْرٍ من الجوائم، يطلق على أنواع كثيرة، منها: الأسود، و الأَبقع، و الزّاغُ و الغُدَاف، و الأعصم. فكانوا يقولون: إذا نعق قبل الرحيل، ويقولون: غراب البَيْن، و يُضرب به المثل في السـواد، و البكور، و الحذر، و البُعد، يقولون: بَكَّرَ بُكُورَ الغُرابِ، و طار غرابُه: شـاب، و أبطأ من غراب نوح (مثل) يُضْـرَب في التأخّر و الإهمال". يُنظر: لسـان العرب، أبو الفضـل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصـري، دار المعارف، مصـر، القاهرة، د.ت، مادة (غرب). والقاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، دار المعرفة، لبنان، بيروت، د.ت، مادة (غَرْبُ).

3. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، عبده بدوي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، مصر، القاهرة، 1988م، ص282.

4. م ، ن ، ص21. وينظر: الشـعراء الصـعاليك في العصـر الجاهلي، يوسـف خليف، ط4، دار المعارف، مصـر، القاهرة، 1986م، ص111. وُينظر: لسان العرب، مادة (غرب). ويُنظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تح: عبد الكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1967م، مادة (غرب).

5. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص110.

6. م، ن، ص107. ويُنظر: القاموس المحيط، مادة: (هجن).

7. ينظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص108. ويُنظر: الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، ص181 – 182.

منهج البحث:

إنّ المنهج المتّبع في هذه الدّراسة هو المنهج الاستقرائيّ، الّذي يتطلّب استقراء النّماذج الشّعريّة وتتبّعها، تلك الّتي اشتملت على التّصوير الإيمائيّ، أو ما يطلق عليه (لغة الجسد و تعبيراته الانفعاليّة)، والمنهج التحليلي الجمالي؛ الذي يستند إلى مفهوم الجميل في علم الجمال؛ وقد كان هذا المنهج أفقاً للكشف عن مفهومات الجمال في شعر الأغربة.

ولا بد من أن نقف بدايةً بعجالة على مفهوم الجميل وفق نظريات علم الجمال:

لغة الجميل:

يعدُّ مفهوم الجمال من المواضيع الفلسفية الحاضرة في مختلف التأملات الفلسفية. لكن هذا الحضور بقي متعلقاً بجوهر فلسفة الجمال، وأحد مباحثها الكبرى، وهو مبحث الأكسيولوجيا (القيم).

وقد بدأ التأسيس لعلم الجمال ومفهوم الجميل بوصفه أحد تصنيفاته في مراحل قديمة، وبدأ يتجلى مفهوم الجميل لدى المفكرين عند اليونان، فرأى **هرقليط** أنَّ التناسب هو آية الجميل وصفته وشرط وجوده[1]. وذهب **ديمقريط** إلى أن الاعتدال شرط الجمال. وجاء بعدهما **سقراط** فحدد الجميل بصفات هي: الحسية والتنوع والشمول والنسبية، والمنفعة[2]. في حين فرّق **أفلاطون** بين الجمال الحسي الأرضي والجمال الروحي العلوي، وربط الجميل بثلاثة شروط هي: الكمال والتناسب والوضوح[3].

ويعد تاريخياً **باومغارتن** صاحب مصطلح علم الجمال، وقد حدد صفات الجميل بالكمال والتناسب بين الأجزاء[4]. وعدّ **فريدريك شيللر** الجمال شكلاً حياً[5]. أمّا **كانط** فقد مزج بين الرائع والجميل، وجعله مرغوباً ونفعياً، كما جعله مترفعاً عن الرغبات[6].

و يبدو مفهوم الجميل أكثر تبلوراً عند **شارل لالو** إذ يرى أن الجميل الحق هو الانسجام، يحسّ به العقل ويقدره الذوق، وهو الذي يبلغ بغير مشقة أكبر قدر من المفعول بأقل قدر من الوسائل، وهذا النجاح المتحقق هو رضى من نوع عقلي أكثر من كونه انفعالاً بالنسبة للحياة الوجدانية انفعالاً بالنسبة إلى الإرادة[7].

وحظي مفهوم الجميل عند الباحثين العرب القدماء بعناية مهمة، وشاب بعضها العفوية، فنجد معايير الجميل عندهم تنسجم و معايير الذوق العربي، وتحكمها مقاييس وأسس محدّدة؛ فنجد **الجاحظ** لم يترك هذه المعايير مطلقة، وإنما اشترط فيها الاعتدال والانسجام والتناسق، فعمود الجمال و منبعه عنده الاعتدال الذي ينأى عن الزيادة والنقص أو الإفراط والتفريط. وفي ذلك يقول: " أما تجاوز المقدار كالزيادة في طول القامة، أو كدقة الجسم، أو عظم الجارحة، أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخَلق، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان في الحسن وإن عدَّت زيادة في الجسم"[8].

---

1. ينظر: مفهوم الجمال في الفن والأدب، عدنان الرشيد، كتاب الرياض، السعودية، الرياض، 2002م، ص15.
2. يُنظر: المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي، أحمد طعمة حلبي، وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 2006م، ص16.
3. يُنظر: مفهوم الجمال في الفن والأدب ، ص16.
4. يُنظر: موجز تاريخ النظريات الجمالية، أوفسيانيكو وسمير نوفا، تع: باسم السقا، دار الفارابي، لبنان، بيروت، 1979م، ص162.
5. يُنظر: في التربية الجمالية، فريدريك شيللر ، تر: وفاء محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، القاهرة، 1991م، ص217.
6. يُنظر: موجز تاريخ النظريات الجمالية، ص256.
7. يُنظر: مبادئ علم الجمال " الإستطيقيا "، شارل لالو، تر: مصطفى ماهر، مر: د. يوسف مراد، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، القاهرة، 1959م ، ص104 – 105.
8. القيان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عمر أبو النصر، مطبعة النجوى، لبنان، بيروت ، 1969م، ص82.

ولفلاسفة العرب المتقدمين محاولات واضحة وجهود بيّنة لتحديد مفهوم الجمال وماهيته؛ فنجد **الفارابي** يعرض في كتابه" آراء أهل المدينة الفاضلة" عن مُثل الجمال والبهاء والزينة، ويخلص إلى أن" الجمال و البهاء و الزينة في كل موجود هو أن يوجد وجوده الأفضل، ويحصل له كماله الأخير"[1].

وقد تبنّى الفارابي فكرة نسبية الجمال حين فرّق بين الجمال الإلهي القائم بذاته، وهو تام و متكامل، والجمال الإنساني الذي يراه كائناً في مظاهره لا جوهره، وهو ناقص وغير متكامل، فقال:" وأما نحن فإن جمالنا وزينتنا و بهاءنا هي بأعراضنا لا بذاتنا، وللأشياء الخارجة عنا لا في جوهرنا، والجمال فيه والكمال ليسا هما فيه سوى ذات واحدة "[2]. وتبعه في ذلك **ابن سينا**، فبحث في الكمال الإلهي، فجسّد فكرته عن الجمال بقوله: "جمال كل شيء و بهاؤه أن يكون على ما يجب له"[3]. ووافقهما **الغزالي** في هذه الفكرة، فقال: " كل شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق الممكن له "[4].

إنَّ ما عرضناه آنفاً من آراء فلاسفة العرب المتقدمين، يُجسّد رؤية الفلاسفة العرب للجميل عامة، ويوافق ما جاء به **جورج سانتيانا** حديثاً بقوله: " الجمال هو أوضح مظهر للكمال وأبرز دليل على إمكانه "[5].

إنّ رؤية الغزالي في تفسير معنى الجميل التي تتجسد في ربط الجمال الحسي بالجمال المعنوي تتوافق و غالبية معاجم العربية في تفسير معنى الجميل؛ فالجمال مصدر الجميل، والفعل: جَمُل. قال ابن سيدة: الجمال: الحُسْن يكون في الفعل والخلق، وقد جَمُل الرجل بالضم جمالاً فهو جميل، والجُمَّال بالضم والتشديد أجمل من الجميل، وجَمَّله أي زينه، والتَجّمل: تكلف الجميل. قال ابن الأثير: والجمال يقع على الصور والمعاني؛ ومنه الحديث:" إنَّ اللهَ جميلٌ يحب الجمال" أي حَسَن الأفعال كامل الأوصاف. والمُجَاملة: المعاملة بالجميل، ويتفق غالبية أصحاب المعاجم العربية مع هذا السياق في تعريف الجمال وأنَّه مصدر الجميل وهو البهاء والحُسْن[6].

لقد حاولنا فيما تقدّم استعراض آراء عدد لا بأس به من المفكرين، للوقوف على مفهوم الجميل، وتعريفه، لنلخصه في الفكرة التي تقول: الجميل هو مجموعة الفكر والتصورات والأفعال والهيئات المتسمة بالتناسب والانسجام والاعتدال و الوضوح.

لغة العيون الجميلة في شعر الأغربة:

العين أحد أعضاء حواسّ الإنسان الذي يؤدي وظيفة الرؤية البصرية، ويتعذر حصر أهميتها في الحياة؛ إذ تستعمل في الحياة بنسبة كبيرة، " فقد أظهرت الأبحاث أنَّ المعلومات التي تصل إلى المخ في العروض المرئية تأتي 83% منها عن طريق العين، و11%عن طريق الأذن، و6%عن طريق الحواس"[7].

وهذه الحقيقة لا تختلف كثيراً من بلدٍ إلى آخر " ففي معظم الثقافات لكي تبني ألفة قوية مع شخص آخر، ينبغي أن تلتقي نظرتك بنظرته (60–70%) من الوقت، وهذا سيجعله يبدأ بالإعجاب"[8].

---

1. آراء أهل المدينة الفاضلة، أبو نصر الفارابي، تح: د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، لبنان، بيروت، 1986م، ص52.
2. آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص53.
3. النجاة، الحسين بن عبدالله بن سينا، مطبعة مصر، مصر، القاهرة ،1331هـ ، ص245.
4. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي، دار المعرفة، لبنان، بيروت ، د.ت، ، ج4، ص299.
5. الإحساس بالجمال: جورج سانتيانا ، تر: محمد مصطفى بدوي ، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، القاهرة ، د.ت، ص 345.
6. ينظر: مادة (جمل) في: تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تح: عبد الكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1967م.
7. لغة الوجوه، ص189. عن: العيون بوصفها قيمة تعبيرية.. شعر المتنبي أنموذجاً، عبد الفتاح محمّد، مجلّة التراث العربي، العدد129، 1434هـ – 2013م، ص151.
8. المرجع الأكيد في لغة الجسد، آلان و باربارا بيز، السعودية، الرياض، 2009م، ص175.

و أصل العين " الباصرَةُ "[1]، وهي حاسة البصر، وتكون مشتركة بين الإنسان و الحيوان، " و جمعها أعيان و أعيُن و أعيُنات "[2].

و في المفهوم العلمي؛ العين " عضو مجوف كروي الشكل، يتألف جدارها من ثلاث طبقات، الخارجية ليفية، والوسطى وعائية، و الداخلية عصبية. الخارجية واقية، و المتوسطة مغذية، و الداخلية حساسة؛ فالأولى تكسب العين شكلها العام، والثانية تنظم كمية الضوء الداخلة إلى العين من خلال البؤبؤ، والثالثة تنقل الإحساسات الضوئية إلى الدماغ "[3].

كما أنَّ " وجود الدموع يغذّي العين تغذية جيدة، وكبتها يؤدي إلى ضرر حسب رأي العلماء النفسيين"[4].

و لهذه الطبقات دور في عملية الرؤية؛ فهي" تحث الضوء الذي تتحسسه الشبكية بإرسال النبضات إلى القسم الخلفي من الدماغ، وتشكل نقطة دخول العصب في كرة العين بقعة عمياء، وهي تتحرك بفضل ست عضلات بصرية متصلة بالجزء الخارجي للعضلة الصلبة من العين[5].

و من دون الضوء لا تستطيع العين أن ترى شيئاً، و عندما يصل الضوء إلى الشبكية ينبه النهايات العصبية الحساسة للضوء... وهكذا يحدث التفاعل الكيميائي بها؛ فتنتج طاقة كهربائية تنتقل عن طريق ألياف العصب البصري إلى الجزء الخلفي من المخ حيث توجد حاسة البصر.

و عندما تنتقل هذه الإشارات الكهربائية... تنبه خلايا المخ التي تستقبلها وتقارنها بالمخزون الموجود من ذكريات وتفهمها[6].

وتعدُّ العين البوابة الحقيقية لرؤية الأشياء من حولنا، تتكلم بصمت؛ فتكون الناقل الأمين لكل ما يدور في خلدنا أو ينتابنا من مشاعر الفرح والحزن والحبّ... وهي بذاتها مظهر جمالي للإنسان، وتمثل أشكالها وألوانها وأحجامها معياراً جمالياً، فضلاً عن وظيفتها في بناء تواصل عاطفي بين البشر.

وقد انتقل لفظ العين في اللغة العربية إلى معانٍ كنائية ورمزية، ولم تقتصر على معنى عضو البصر، فأريد بها الجاسوس، والحسد، والسحابة، وينبوع الماء، والشمس وغيرها...[7]

وظهر بجلاء استعمالات لفظ العين في دلالات أخرى في سياق آيات القرآن الكريم وسوره؛ فجاءت للدلالة على الحسد[8]، ذلك أنَّ العيون الحاسدة عيون تعرَّت من قيم الجمال الروحية، فاستحالت أشباه عيون جلَّ همها أن تُذبل الورود وأن تمنع الشمس من السطوع.

واستُخدمت للدلالة على هيئات العين المختلفة، فأوحت بالعين الخائفة المترقبة[9]، كذلك أوحت بالعين الخائفة الوجلة[10].

---

1. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، دار المعرفة، لبنان، بيروت، د.ت، مادة (عَيْن).
2. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار المعارف، مصر، القاهرة، د.ت.، مادة (عين).
3. يُنظر: أمراض العيون (الموسوعة الصحية)، محمد رفعت، عزّ الدّين للطباعة و النشر، لبنان، بيروت، ط1، 1986م، ص13-18.
4. يُنظر: أمراض العيون (الموسوعة الصحيّة)، ص41.
5. يُنظر: موسوعة جسم الإنسان، زينب حبيب، دار الإسراء للنشر و التوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2000م، ص60-63.
6. يُنظر: عيونك، محمود صلاح مصطفى، دار الكتب و الوثائق القومية، مصر، القاهرة، العدد7، 1982م، ص6.
7. ينظر: العين في الشعر الجاهلي دراسة ميثولوجية، دعاء هشام بكر اشتية، جامعة النجاح الوطنية، كلية الدراسات العليا، 2014م، ص6.
8. في قوله تعالى: (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم)، سورة القلم، الآية: 51.
9. في قوله تعالى: (ويقولُ الَّذينَ آمنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِليكَ نَظَرَ الْمغْشِيّ عَليهِ مِنَ الْموتِ فأَولَى لهُم)، سورة محمد، الآية: 20.
10. في قوله تعالى: (أَشِحَّةً عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أَعْيُنُهمْ كَالَّذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ المَوْتِ فإذا ذهب الخوف سلقوكُمْ بألسِنَةٍ حِدَادٍ)، سورة الأحزاب، الآية: 19.

وحَرِيٌّ بنا في هذا المقام الإشـارة إلى أهميّة هذه الحاسّـة، و دورها في التواصـل، ليس في الأدب وحسـب، وإنّما في الحياة عموماً، حتى إنّ فقد هذه الحاسة يضرُّ بالتواصل و يُضعفه.

فأصل العمى: " ذهاب البَصَر كُلِّه "[1]، وإذا كان الشعر يعتمد على البصر، فإنَّه أكثر ما يعتمد على البصيرة، وهذا ما أثبتته تجارب الشـعراء الذين أُصـيبوا بالعمى، والعمى من أكثر الإعاقات إيلاماً؛ ففقدانها خسـارة كبيرة لصـاحبها، وهذا لكون العين من أكثر الجوارح نطقاً وأقدرها على تصـوير الأشـياء، غير أنَّ هذا الفقد للبصـر يتفاوت أثره بين شـاعر و آخر، فمنهم من جعله عائقاً أثّر في حياته، ومنهم من تجاوزه ولم يجعل نفسه رهيناً له[2].

ولم تنحصر شواهد العمى في الشعر العربي وحسب، بل ثمة شواهد وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة تحدثت عن هذه العاهة، فالعمى في القرآن الكريم يطلق على معنيين: الأول يُقصـد به عمى القلوب وهو الكفر[3]، والثاني المقصـود به عمى الأبصار وهو عدم القدرة على مشاهدة المخلوقات[4].

و وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ذكرت العين والبصـر، يضـيق المقام عن الإفاضـة فيها، ولو أردنا الإلمام بها ربّما احتاج الأمر إلى كتب خاصة تُعنى بهذا الشأن.

و تحدَّث الأدباء العرب عن وظائف العين التعبيرية؛ فعقد **ابن عبد ربّه** باباً في (العِقْد الفريد) سمّاه: (الاستدلال باللّحظ على الضـمير) مورداً بعض النماذج من التراث العربي الأدبي تكشـف عن أثر العين في التواصـل. كذلك فعل **الآبي** في كتابه: (الأُنْسُ و العُرْسُ)، وقد أطلق عليه: (دلالة عيون الإخوان على ضمائرهم).

و رأى **ابن حزم** أنّ لحظ العين " يقوم المقام المحمود، ويبلُغ المبلغ العجيب، و يُقْطع به و يتواصَـل، ويوعَدُ و يهدَّدُ، وينتهر و يُبْسطُ، و يُؤمَرُ و ينهى ... ويُضحَك و يُحْزنُ، و يُسأل و يُجابُ، ويُمنَعُ ويعطى، ولكل واحدٍ من هذه المعاني ضربٌ من هيئة اللحظ ..."[5].

و قد أفرد للإشـــارة بالعين باباً في كتابه (طوق الحمامة) عَنِيَ فيه بالعين و حركاتها، و إشـــاراتها، و مدلولاتها، فذكر أنَّ النظر بآخر العين الواحدة نهي عن الأمر، و تصغيرها إعلام بالقبول، و إدامة النظر دليل التوجّع و الأسى، و كسر نظرها آية للفرح، و قلب الحدقة من وسط العين إلى موقعها بسرعة شاهد على المنع[6].

و هذا ما أكّده **سيجموند فرويد** حين أشار إلى دور العين في التواصل مع العالم الخارجي، مقرراً اتصالها بمواضع القلب: "والعيون وجوه القلوب وأبوابها التي تبدو فيها أحوال النفس وأسرارها، وذلك لاتصالها بمواضع القلب وصفائها و رقَّتها"[7].

---

1. لسان العرب، مادة (عمي).

2. فها هو " ميمون بن قيس بن جندل " الذي اشـتهر بلقب الأعشـى، ولزمه هذا اللقب طيلة حياته لضـعف بصـره، أصـيب بالعمى في أواخر عمره، وعلى الرغم من ذلك فقد اشـتهر بشـعره الجميل، فأخذ الناس يتغنون بشـعره، حتى لُقب ب (صـناجة العرب) لجودة شـعره. يُنظر: المعلّقات العشـر وأخبار شعرائها، أحمد الأمين الشنقيطي، المكتبة الأدبية، سورية، حلب، د.ت، ص42.

3. في قوله تعالى: (و ما يستوي الأعمى و البصير)، سورة فاطر، الآية:19. و قوله تعالى: (قل هل يستوي الأعمى و البصير أم هل تستوي الظلمات و النور)، سورة الرعد، الآية: 16.

4. في قوله تعالى : (صُـمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ)، سـورة البقرة، الآية: 18. و قوله تعالى : (فمن أبصـر فلنفسـه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ)، سورة الأنعام، الآية: 104.

3. طوق الحمامة في الأُلفة و الألاف، علي بن أحمد بن حزم، ط3، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، 2003م، ص32.

4. يُنظر: م، ن، ص136.

5. السياسة في علم الفراسة، محمد بن أبي طالب الأنصاري، تح: أحمد فريد المزيدي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، 2005م، ص57.

فضلاً عن جهود أخرى **لابن قيّم الجوزية** في " روضة المحبين "، و **لابن حجلة** في " ديوان الصبابة "، إذ يتمُّ التأكيد فيهما أنّ المشاهدة و التجربة أمران مهمّان في فهم حقيقة الدلالات[1].

ولقيت لغة الجسد عامّة والعين خاصّة عناية كبيرة في هذا العصر، وكثر الحديث عن دورها في التواصل، والإبانة عن مكنونات النَّفس ، وإثبات الحقائق التي لا تصبح مؤكدة إلا إذا أقرتها العين.

وتداول شعراء الجاهلية الأوائل صورة العين بوصفها لغة تعبيرية منذ القدم نظراً لأهميّتها، فهي الجزء الرئيس في جسم الإنسان، ومنها يطلُّ على العالم الخارجي، فاحتلت مساحة واسعة من هذا الشعر الذي جاء تعبيراً عن الحياة الجاهلية بكثيرٍ من تفاصيلها؛ وسماته الواقعيّة تبيّن أنّه كان ينقلها بأسلوبٍ واقعيّ.

وكثر عند شعراء الجاهلية في أشعارهم الغزل بالمرأة، والحديث عن الحبّ، والتغزّل بالمحبوبة، فجسّدوا بالشعر صفاتها وتغنّوا بجمالها، واشتكوا من فراقها؛ فكانت المرأة عندهم رمزاً لجمال الوجود وعبقريته في الخلق و الإبداع.

و استدعى هذا الغزل و أحوال العشق توظيف لغة العين، إذ كانت مخصبة إبداعهم سواء أكان ذلك في التغنّي بجمالها، أم في وصف تعبيراتها.

وقد اتّخذ الشعراء العين وسيلة للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم ومختلف أغراضهم الشعرية؛ فلم يقتصر حضورها على الغزل، بل تعدّاه إلى المديح والرثاء والبكاء على الأطلال.

فالعين مرآة النفس، تعكس الحبّ، البغض، الفرح، الحزن، الأمل، اليأس، الرضى، الحيرة، الهدوء، السخرية، الاحتراز، الرؤية، التمنّع... فكانت العين المصدر الروحي لكل جسد تنبعث منه المشاعر المختلفة.

وكان الشعراء الأغربة ممن حذوا حذوهم بوصف عين المرأة في مختلف المواقف والهيئات، معتمدين على التشبيه والمقاربة. وسنسعى في ما يأتي إلى الكشف عن لغة العين عند الأغربة وفق تعبيرات مظاهرها من منظور جمالي، و نبيّن جماليّة هذه اللغة عندهم، مبرزين القيم الشعورية والتعبيرية في أشعارهم.

فقد برز اهتمام الشعراء الأغربة في كشف جمال المرأة بإظهار جماليّة هندسة شكل العين، فاتخذوها محوراً للتذوق الجمالي، عاكسين مزاجهم التحليلي في تفصيل وضعياتها في مجال الحبّ؛ للتعبير عن مختلف المشاعر الرقيقة، محتذين أعراف المجتمع ومعاييره لجمال المرأة؛ فقد " عَدّ العرب حلاوة المرأة في عينيها "[2]، فوقفوا عند نظرات المرأة، وتحدثوا عن أثر جمالها في نفوسهم، وأكثروا من تشبيهها بالسَّيف أو السهم الذي يصرع من يصيب، فتغنّوا بالعين في جميع أوضاعها و حالاتها، واتّبع الأغربة في وصفهم عين المرأة الرؤية الجماليّة للعين عند الجاهليين، ذلك أنّ المعاني التي تعاقبوا عليها في الحديث عن عيون المحبوبة ووصفهم لها متقاربة تشترك في الصورة الخارجيّة؛ فكانوا يتشبّهون بالأحرار وغزلهم لأنّهم في أعماقهم يتمنون أن يكونوا متشابهين معهم.

وشكّلت العين في أشعارهم جزءاً حيوياً من جماليات جسد المرأة، وعَنَوا بوصف جمالها، و أكثروا من تشبيهها بكل ما رأوه جميلاً و فاتناً، فوقفوا عند العين الجميلة فصوروها وتحدّثوا عن مقومات جمالها؛ فكانت أشعارهم مسرحاً للصور الحسيّة نتيجة استجابتهم إلى نوازعهم الذّاتية؛ فجعلوا منها ميداناً عبّروا من خلاله عن حرقة حرمانهم من التمتّع بحقوقهم الإنسانيّة؛ وحقّهم في مشاركة الشعراء الجاهليين في الغزل بالمرأة؛ متجهين إلى إبراز رؤاهم لجمال المرأة التي تنسجم مع الشعر الجاهلي في جوانبها الحسيّة؛ وتمثّل خصائصهم النفسيّة في جوانبها المعنوية.

---

6. يُنظر: العيون بوصفها قيمة تعبيرية.. شعر المتنبي أنموذجاً، عبد الفتاح محمد، ص152.

2. فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، ط1، لبنان، بيروت، 2002م، ص56.

وقد ماثلوا الشعراء الجاهليين في اعتمادهم " في وصفهم العيون الجميلة على التشبيه والمقاربة، وأعربوا عن رقة شعورهم، وإحساساتهم بالجمال بلغة عذب جرسها، حلوة ألفاظها "[1].

ووظّف الأغربة لغة عين المرأة في بعض أشعارهم لتجسيد مظاهر جمالها الشكلية، وأظهروا دورها في التواصل الإيمائي، بوصفها أكثر أعضاء الوجه جمالاً و سحراً و جاذبيّة، فتحدّثوا عمّا يعكسه جمال مظهرها من أثر في نفوسهم، و أشاروا إلى ما لها من قيمة تواصلية كبيرة بين الأفراد، ولاسيما الشعراء العشاق، ذلك أنّها تعبّر عن الجوانب الحقيقية من مشاعرهم وانفعالاتهم، " فثمّة طريق من العين إلى القلب لا يمرّ عبر العقل"[2]. كما نجد عند عنترة؛ إذ برزت لغة العين عنده لغة تواصل جمالي؛ واتّخذ منها وسيلةً للتغزّل بعبلة فشبّه عينيها بعيني ظبي صغير، وفق ما جرت عليه عادة الشعراء آنذاك.

يقول عنترة[3]:

و كأنّما نَظَرَتْ **بعَيْنَيْ شادِنٍ** رشَأٍ من الغِزْلانِ لَيْسَ بِتَوْءَم[4]

رسم عنترة صورة عيني عبلة ليبرز جمال شكلها و تناسقه؛ فأبرز العين و شدّة سوادها، وهما وصفان لجمال شكل العين و لونها، وشبّه النظرات المنبعثة من عيني عبلة بنظرات ظبية صغيرة، مستعيراً خصوصيّة جمال الظبية التي توحي بالبراءة والمحبّة والحنو والدفء، لأنها لغة تعبّر عن مشاعر الحبّ والجمال، وهي ذات محتوى شعوري حميم، فضلاً عن مظاهر شكل العين الجماليّة، و ربط لغة جمال العين بلغة محبّته لعبلة التي تدفعه نفسياً إلى تمجيدها ورؤيتها تامّة الحُسن، تعجّ بالأنوثة والرّقة والدلال، وهذا ما أوحى به وصفه؛ بأنّه ظبي مدلّل لم يزاحمه غيره في بطن أمه، ولا رضع معه غيره، ليكون ذلك أتمّ لخلقه وحسنه، إمعاناً منه في نسب كمال الأوصاف بمحبوبته عبلة.

وقد تجلّت لغة الجسد في العين الجميلة عن طريق إيحاء المظهر الحسيّ الخارجيّ للعين؛ فهي لغة صامتة، اتخذت من دلالات الشكل تعبيرها؛ فأوحت باتّساع عيني المحبوبة واتّساع سوادهما، فعكست صلة عنترة العميقة بالعشق الذي عرف به، فكانت هذه الأوصاف تُثير الإحساس بالجمال وتستجيب للعاطفة، فأبانت مكنونات النفس من دلالة عين الشادن على الدفء والحنو والمحبّة.

وعمل التصوير الشعريّ بأدواته على بثّ الحياة و الحركة للتعبير عن سحر جمال نظرات عيني عبلة، إذ جسّدت صورة حركة شاخصة، تمثّلت في توظيف هيئة العين للدلالة على شدّة جمال عيني عبلة اللتين تشبهان عيني الظبي في السعة و السواد، وفق معايير جمال العين عند العرب، في قوله: " بعيني شادن " وأراد به تشبيه عيني عبلة بعيني ذلك الظبي الفتيّ القويّ الواسعتين، وقد كنّى بنفي كونه توءماً عن قوته، وهو يقصد قوّة الفتوة والشباب المحبّبة إشارة منه إلى فتوّة عبلة، فهي في ريعان الصبا.

فوظّف عنترة لغة الجسد لترسيخ ذلك الجمال، وفق سياقها في مجال التعبير عن عاطفته وحبّه لعبلة، إذ ذهب يبين أوصاف تلك العيون في سياق الغزل، فكشف مظاهر جمال عيني عبلة القائم على اتساعهما واتساع سوادهما للوصول إلى الجميل.

و لم يقتصر الأغربة في أشعارهم على ذكر العين مفردة، بل سعوا إلى ذكر ما يتعلق بها من أجزاء، ذلك أنّ " العين محفوفة بالأجفان و الأهداب و الحواجب "[5]، ، فانتقلوا من ذكر العين بمظهرها الكلّي إلى ذكر ما يتعلّق بها من أجزاء،

---

1. العيون في الشعر العربي، محمّد جميل حطّاب،ط1، دار الحوار، سورية ، اللاذقيّة ، 1999م، ص60.
2. لغة الجسد، جيمس بورغ، تر: أميمة الدكاك، وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 2015م، ص34.
3. ديوان عنترة، تح: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، جامعة القاهرة ، مصر، القاهرة ، 1964م، ص195.
4. الشادن: الغزال الذي قد شدا، أي قوي على المشي مع أمه.
5. العيون في الشعر العربي، ص48.

فكان لحاجبي المحبوبة مكانٌ في أشعارهم، حيث نجد عنترة يقتبس صورةً جميلةً يُضفيها على جمال عيني عبلة، فيشبّه حاجبها في تناسقه وتقوسه وامتداده ودقّته بحاجب النون، قائلاً:[1]

لَهُ **حاجِبٌ كالنّونِ** فَوْقَ **جُفونِه** وَ ثَغْرٌ كَزَهْرِ الأُقْحُوَانِ مُفَلَّجُ[2]

تفنن عنترة في رسم حاجب محبوبته، وأبدع في تشكيل صورةٍ تفرّد فيها عن أقرانه من الشعراء الأغربة، أظهر فيها مقدار الإعجاب العظيم بجمال حبيبته؛ فاستعمل لغة العين لتعزيز مظاهر جمال العين؛ فأفصح عن كمال حسن عينيها بقوله: " حاجب كالنّون " وأراد به التدليل على جماله، و ما أضفاه شكله القائم على دقّته وامتداده وتناسقه وحسن تقوسه من هندسة جماليّة لمظهره، وقد حدّد موضعه بدقةٍ في قوله: " فوق جفونه "؛ فقامت رؤيتة لجماله على حُسن التناسق ودقّة الشكل، وقرن ذلك بلغة جمالية منحته بعداً جمالياً يكمن في نظامهما وتناسقهما وتناسبهما؛ فاقتفى في تغنّيه بجمال حواجب عبلة رؤية مجتمعه وتقاليده في مقوّمات جمال المرأة، التي عدّت "من محاسن الحاجب عند العرب: الزَّجَجُ و البَلَج. فأمّا الزجج فدِقَّةُ الحاجبين وامتدادهما حتى كأنهما خُطَّا بقلم، وأما البَلَجُ فهو أن تكون بينهما فُرجة، والعرب تستحبُّ ذلك"[3].

وفي السياق ذاته، يتغنّى عبدة بن الطبيب بجمال هنيدة وعينيها الكحلاوين:[4]

كأنَّ ابنةَ الزَّيْدِيّ يومَ لَقِيتُها هُنَيْدَةَ **مكحولُ المدامعِ** مُرْشِقُ[5]

يتغزّل عبدة بمحبوبته هند بفيضٍ من الحبّ والولع بجمالها، متحبّباً إليها بتصغير اسمها ب " هنيدة " على جهة الإلطاف، ثم بيّن أنّ تقديره مرده شدّة تأثره بجمال عينيها ساعةَ اللقاء، اللتين بدتا مثل عيني ظبي مكحول المدامع، فجعلهما لغة للجميل لتعبير المظهر الحسي للعين عن شكلها الواسع، ولونها الذي يظهر كحيلاً، وهما من مجال الجميل؛ في العين؛ فكانت لغة الجسد للعين في تعبيره بالغة في إثارة الإحساس بجمال صورتها، وتحمل هذه اللغة إيحاءات تنشأ من الربط بينها وبين عين الظبي التي تشرئب بعنقها فيظهر جمال عينها.

فثمة صلة وثيقة بين نظرات العيون وما تتركه من أثرٍ في النفوس والقلوب؛ فالعين من أكثر الأعضاء حركة، ولاسيما في مقام العشق ذلك أنَّ " كل ما في العين يتحرَّك وبشكل مختلف. الجفون تختلج، والأهداب ترتعش، والمقلة تدور، و الحواجب تعلو وتهبط، وإنسان العين يضيق ويتَّسع، وعدسة العين داخل المقلة تنقبض وتنبسط"[6]. غير أنّ هذه الحركة لا تقتصر على العين، وإنّما يترافق معها خفقان قلب المحبّ المُتيّم.

وظّفت شعرياً لغة الإيماء من خلال تصوير أحوال العين وأوصافها؛ وارتباط تلك الأوصاف والحركات بلغة تعبيرية مرتبطة بالرقة والجمال بما فيه من انسجام واعتدال؛ فكانت الأشكال الحسيّة في الشعر صدىً للانفعالات الداخلية؛ مما جعل الانفعال أساس لغة التجسيد الشعري.

وقد تبدّت لغة الجسد للعين في بيت عبدة في تعبير" مكحولُ المدامعِ " وأراد به التعبير عن جمال عيني محبوبته وشدّة سوادهما بغير كحل، إشارةً منه إلى جاذبيتهما وسحرهما؛ ولغة الإيماء هنا تكون في التلقّي لمظاهر الجمال القائم في

1. ديوان عنترة، دار صادر، لبنان، بيروت، ص141.
2. كالنون: كالمتقوس. مفلج: المتباعد ما بين أسنانه.
3. فقه اللغة وسر العربية، ص84. و يُنظر: جماليات تأثير اللون في شعر أغربة العرب، ص51.
4. شعر عبدة بن الطبيب، يحيى الجبوري، دار التربية، العراق، بغداد، 1391هـ،1971م، ص52.
5. مكحول المدامع: ظبية شديدة سواد العين، مرشق: أي تمد عنقها و تشرئب لتنظر، و المرشق التي معها ولدها.
6. العيون في الشعر العربي، ص60.

الاكتحال الطبيعي للعين، وهنا وإن كان الشـــاعر نطق لفظاً بتحديد جمال العين إلا أنّ الشـــكل الذي نطق به ينطوي على دلالات الزينة الطبيعية المرتبطة بالرقة والتناسب والانسجام، وهو قائم في توزّع الألوان أي الكحل الطبيعي.

ويؤكد عبدة الأثر القاتل للعيون المكحولة في قلبه، جاعلاً لغة الجسد نبع إشعاع لجملة دلالات أوحت بمظاهر جمال هاتين العينين حين عرض لنظرة محبوبته؛ فعبّر عن فيضٍ غامرٍ من الأحاسيس الموحية اليقظة التي وصلت بينه وبينها.

فقد افتُتن الشعراء الأغربة بالعيون الحوراء شأن شعراء الجاهلية؛ فقد كان الشعراء الأغربة بدافع انتقاصهم الإنساني يتشبهون بأفعال الجاهليين الأحرار في غزلهم من جهة، ومن أخرى كانوا ينســجمون مع مقومات الجمال الاجتماعيّة ويجســدونها في أشــعارهم، ويتغنون بها؛ فقد كان لهذه العيون أعرافها الجماليّة عند العرب، إذ جعلوها كياناً جماليّاً متعدّد المعاني والصّــفات اتخذوه مقياساً للجمال.

ويتأتى ســحر العيون الحوراء وجاذبيّتها من اجتماع شـدّة البياض إلى شـدّة السـواد مع سـعة المُقلة، وقد جذبت هذه العيون أنظار الشعراء؛ فوقف الأغربة في حرم جمالها وقفة متأنيّة، وأبدعوا في رسم تفاصيلها ونظراتها.

و قد أثّرت هذه العيون في خفاف السلمي فاستولت على قلبه و سلبت عقله، و تبدّى ذلك في قوله[1]:

و ما إنْ **أحور العَينين** طِفْلُ تَتَبّعَ رَوْضةً يَقْرُو السَّلامَا[2]

رسم خفاف صورة العيون الحوراء؛ فشبه عيني محبوبته سلمى بعيني ظبي صغير أحور، وقد جعل الظبي طفلاً لأن نظراته يخالطها البراءة والعفويّة، إشارةً منه إلى كميّة البراءة المنبعثة من النظرات الفاتنة لمحبوبته.

فحمل رسمه للعينين وتشبيهه لهما لغة جسد تحمل تعبيراً حسيّاً جمالياً لشكل العينين في قوله: " أحور العينين " إ ذ الحور يجمع شدّة البياض إلى شدّة السواد، وتقابل تضاد اللونين يزيد من جمالهما، ويُثير سحرهما الذي يأخذ ألباب الشعراء.

وتضــيف لغة العينين الإيمائية تأثيراً أخذ عليه عواطفه وحواسّــه الجماليّة، وأســهم في تحفيز حبّه ومشــاعره " ففي ظلال العينين يتعلم الإنســان معنى الحبّ "[3]؛ فحمّل لغة العين، فضــلاً عن تجسـيدها للجميل في مجال الرقة والتناسـق، فيضــاً إيحائياً بالبراءة والدفء والمشاعر الرقيقة الحميمة؛ فكانت هذه الأوصاف معبراً للوصول إلى الجميل بما امتلكته تلك العينان من صفات الحسن والجمال.

وتواتر تشـبيه الشـعراء الأغربة عيني المرأة بعيني البقرة الوحشـية (المها) تعبيراً عن الجمال والسـعة، فاتّخذوا من عينيّ المها أنموذجاً لجمال عيني المرأة، فشبّه **سحيم** عيني محبوبته بعيني المهاة، في قوله:[4]

و **عينيْ مهاة** بسقط الجما دِ تعطو نعافاً و تقرو نعافا[5]

وظّف سحيم لغة العين ليُبرز بها الشكل الجميل للعينين بتشبيهما بعيني المهاة، في قوله: " وعيني مهاة "، وهو تشبيه جرت عليه ألسنة الشعراء في تجسيدهم مظاهر العيون الجميلة، فكثيراً ما يَعمَدُ الشعراء إلى هذا التركيب الإضـافي (عيون المها) في أوصـافهم وتشبيهاتهم، وقد عُرفت هذه البقرة بسعة العيون وشدّة سوادها ونقاء بياضـها؛ فاتخذها الشعراء مقياساً للعيون الجميلة، ونسبوا هذه الصّفات إلى عيون المحبوبة تجسيداً لجمال شكلها ونظراتها المشبعة بالمشاعر اللطيفة.

---

[1]. شعر خفاف بن ندبة السلمي، نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، العراق، بغداد، 1967م، ص93.

[2]. السلام: شجر أخضر، لا يأكله شيء و الظباء تلزمه، تستظل به، و لا تستكن فيه.

[3]. العيون في الشعر العربي، ص49.

[4]. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، القاهرة، 1369هـ- 1950م، ص43.

[5]. مهاة: بقرة وحشية، سقط الجماد : أسفله، تعطو : تتناول، تقرو : تعطو.

ولم يكن سحيم أول من تطرق إلى هذا الوصف في شعره، وإنما نجده قد اتّبع من سبقه من الشعراء الذين قرنوا عيني المرأة بعيني المهاة التي رأوها مثلاً عليها أعلى لجمال العين؛ فاتّخذت صـــفة المعيار لعلو جمالها؛ فالشـــاعر وظّف لغة العين للتعبير عن العين الجميلة منطلقاً من صفات جمالية باتت عرفاً جماليّاً في مجتمعه.

فاستعاره للتعبير عن جمال محبوبته، ذلك أنَّ سعة العيون و شدّة سوادها ونقاء بياضها صفات تتعلق بالشكل الخارجي للعين، فكانت لغة الجمال عنده متمثلة بمظهر العين الخارجي الكليّ، الذي يدلّ على التناسق والانسجام في الألوان والسعة؛ مستجيباً لإحساسه الجمالي العالي المرتبط بعناصر الجميل، وهو معيار جمالي لدى الجاهليين، ذلك أنَّ حُسن العين يظهر بسعتها؛ و عُرف أنّ عين المها كانت من مدركاتهم الجماليّة التي تقوم على سعة العين وتناسق ألوانها.

الخاتمة و نتائج البحث:

نستدلّ من هذا العرض للغة العين الجميلة أنّ الشعراء الأغربة وظّفوها للتعبير عن الشكل الجمالي للعين في سياق الرقة والتناسق في الشكل واللون؛ فكانت لغة حسيّة في هذا الجانب تعبّر عن المظهر الحسي للجمال في العين، و في جانبٍ آخر حمّلوا لغة الجسد جملة إيحاءات شعورية تكشف عن أثر جمال العين ونظراتها المشبعة بالحبّ والبراءة و المشاعر الإنسانية الرقيقة؛ فبيّنوا الأوصاف الجمالية للعيون العربية، ووظّفوها في سياق الغزل بالمرأة.

وقد سخّر الأغربة العين في أشعارهم لغة جسد قادرة على إيصال المعاني المختلفة التي صبوا إليها في إبراز لغة جمال العين مباشرة غالباً؛ وإيمائيّة أحياناً، واتّخذوها لغة تواصليّة، فضلاً عن كونها لغة تعبيريّة، فبرزت لغة الجمال الإيمائي للعين في أشعارهم، وبرز إحساسهم بالجميل، على الرغم من خلو حياتهم خلوّاً شبه تام من الجمال؛ والإحساس به، فكانت لغة الجمال عندهم إيمائيّة، خصّوا بها المحبوبة، فتجلّت في أشعارهم ترجمةً للنفس الظمأى إلى الارتواء والخصب، إذ شعروا بذواتهم حيّة حين جسدوا مظاهر الجمال.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1. إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي،ج4، دار المعرفة، لبنان، بيروت، د.ت.
2. تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تح: عبد الكريم الغرباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، 1967م.
3. تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تح: عبد السلام هارون، مر: محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، القاهرة، ط1، 1964م .
4. ديوان سحيم بن الحسحاس، تح: عبد العزيز الميمني، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، القاهرة ، 1369هـ – 1950م.
5. ديوان عنترة، تح: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، جامعة القاهرة ، مصر، القاهرة ، 1964م.
6. ديوان عنترة، دار صادر، لبنان، بيروت، د.ت.
7. شعر خفاف بن نُدْبَة السُلمي، تح: د. نوري حمودي القيسي، مطبعة المعارف، العراق، بغداد، 1967م.
8. شعر عبدة بن الطبيب، د. يحيى الجبوري، دار التربية، 1391هـ – 1971م.
9. العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربّه، شـــر: أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الأبياري، دار الأندلس، لبنان، بيروت، 1996م.
10. القاموس المحيط، مجد الدين الفيروز آبادي، دار المعرفة، لبنان، بيروت، د.ت.
11. لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار المعارف، مصر، القاهرة، د.ت.
12. أمراض العيون (الموسوعة الصحية)، محمد رفعت، عزّ الدّين للطباعة والنشر، لبنان، بيروت، ط1، 1986م.

13. آراء أهل المدينة الفاضلة، أبو نصر الفارابي، تح: د. ألبير نصري نادر، دار المشرق، لبنان، بيروت، ط2، 1986م.
14. البيان و التبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، مصر، القاهرة، 1975، ج1،
15. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، تح: محمد علي النجار، ط4، الهيئة المصرية العامة، مصر، القاهرة،1990م.
16. السياسة في علم الفراسة، محمد بن أبي طالب الأنصاري، تح : أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط1، 2005م.
17. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، عبده بدوي، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، مصر، القاهرة، 1988م.
18. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، يوسف خليف، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط4، 1986م.
19. طوق الحمامة في الأُلفة والألاف، علي بن أحمد بن حزم، دار الكتب العلميّة، لبنان، بيروت، ط3 ،2003م.
20. العيون في الشعر العربي، محمّد جميل حطّاب ، دار الحوار، سورية، اللاذقيّة، ط1، 1999م.
21. فقه اللغة وسر العربية، أبو منصور الثعالبي، تح: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، لبنان، بيروت، ط1 ، 2002م.
22. القيان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عمر أبو النصر، مطبعة النجوى، لبنان ، بيروت ، 1969م.
23. المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي، أحمد طعمة حلبي، وزارة الثقافة ، سورية ، دمشق ، 2006م.
24. مفهوم الجمال في الفن والأدب، عدنان الرشيد، كتاب الرياض، السعودية، الرياض، 2002م.
25. موسوعة جسم الإنسان، زينب حبيب، دار الإسراء للنشر و التوزيع، الأردن، عمان، ط1، 2000م.
26. النجاة، الحسين بن عبدالله بن سينا، مطبعة مصر، مصر، القاهرة، 1331هـ.
27. الإحساس بالجمال، جورج سانتيانا، تر: محمد مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، القاهرة، د.ت.
28. في التربية الجمالية، فريدريك شيللر، تر: وفاء محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، القاهرة، 1991م.
29. لغة الجسد، بيتر كلينتون ، إعداد: أ. مهند الخيري ، بلا طبعة، د.ت.
30. لغة الجسد، جيمس بورغ ، تر: أميمة الدكاك، وزارة الثقافة، سورية، دمشق، 2015م.
31. مبادئ علم الجمال" الإستطيقيا "، شارل لالو، تر: مصطفى ماهر، مر: د. يوسف مراد، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي و شركاه، مصر، القاهرة، 1959م.
32. المرجع الأكيد في لغة الجسد، آلان، و باربارا بيز، السعودية ، الرياض ، 2009م.
33. موجز تاريخ النظريات الجمالية، أوفسيانيكو و سمير نوفا، تع: باسم السقا، دار الفارابي، لبنان، بيروت، ط2، 1979م.
34. العيون بوصفها قيمة تعبيرية.. شعر المتنبي أنموذجاً، عبد الفتاح محمّد، مجلّة التراث العربي، العدد129، 1434هـ – 2013م.
35. عيونك، محمود صلاح مصطفى، دار الكتب والوثائق القومية، مصر، القاهرة، العدد7، 1982م.
36. جماليّات تأثير اللون في شعر أغربة العرب، رسالة ماجستير، إعداد: خالد زغريت، إشراف: أحمد علي دهمان، كليّة الآداب، جامعة البعث، سورية، حمص، 2005م.